

أديب من وطني / خالد سعود الزيد... تجلي الفكرة وإشراق الكلمة

| فهد توفيق الهدال |

ذكر في الأثر عن الصوفية، أن الأدب لديهم لا يطالب ببذل الروح مقابل فعله سوى لذة المعنى، لكونه أدبا يهتم بالمعنى والبحث عن قيمه الكبرى، لا البحث عن قيم المواساة والتأسي. فالأدب لديهم يسعى للبحث عن معنى في كل فعل وعن قيمة وجدانية تحدد بدورها أدبه تجاه كل ما في الوجود. إنه الاستدامة المعمقة لاحتواء العالم في الذات. ما جعل منه أدب الوفاء بالبلاء، وربط العلم بالعمل. ف جاء الاهتمام بالكلمة كقوة تعادل في فعاليتها معنى الفعل. لان أدب القناعة الفردية هو أدب التجربة الفردية، وليس انزواءها. من هنا، ارتبط الأدب بالصوفية والعكس أيضا عند بعض الكتاب، فوجدوها معينا فكريا في تجلي الفكرة ومنبع إشراق الكلمة. فكلاهما – الفكرة والكلمة – يولدان من رحم الحقيقة المطلقة، تلك التي تُبنى عوارف علومها على صور المعنى التي يعبر الباذلون أرواحهم في تأديب نفوسهم، ليكون مشعلا لمن بعدهم، تلك الصورة يمكننا تلمس ملامحها فيما وصفه الشاعر المرحوم خالد سعود الزيد :

منك ما في الحروف من عنفوان
يا ابتسامات نغرها في المعاني
يا ارتياد المشوق ينداح بعدا
كلما لاح للعيون الرواني
خالك العاشقون مرمى منال
فإذا البعد مثله في التداني

ليتضح لنا أن الشعر خير أرض لما يبثه العاشق لتجلي النفس من روعة الفكرة وعمق المعنى، فهو يتجاوز أشكال وقوالب الوزن إلى أفق الوجد البعيد عن واقع نزوات ووحشية الزمن، ففي ذلك البعيد، يرى العاشق هالة النور والمعشوق.

وكأنني هنا بشاعرنا الزيد، عندما خاطب القصيدة قائلا:

إنني سكبك من أعماق وجداني
يا مهبط الوحي يا فيحاء بستاني
ففيك ما في فؤادي من تجاربه
ومن سجايبي في أنسي وأحزاني

ما اللفظ في نفسي النشوى سوى طلل
قد صغته فاستوى عملاق بنيان
ثم يقول:

لولاك ما وسمت عيني مدامعها
على الوجود لتبقى كأس ألحان
ولا تجلت خفايا النفس عابقة
بجوهر الروح من أعماق فنان
ولا نفى النوم عن عينيه ذو همم
وصافح المجد في أشواق ولهان
ولا بكى الناي من ترتيل ذي شجن
وحرك الدمع جرح المدنف العاني

فيختم رؤيته للشعر بأنه سر الوجود. ولكن أي وجود هذا الذي تخلقه القصيدة؟
هو ذلك الذي يتجاوز حدود الواقع إلى ما هو أبعد زمانا ومكانا، كما البحث عن الحقيقة المطلقة،
وما يرافقه من هول البحث ومخاطره.

كما قال شاعرنا الزيد في قصيدة (البحث):

سأظل على راحلة الأسفار، على كتفي مزودة ظمأى
ينهشها ليل وحشي الأنياب
لستُ الأول مصلوبا في الدرب
ولا الآخر مقتولا في الحرب
أجيال من قبلي مرت
هذا مقطوع الساقين
وذا من دون يدين
والدرب على مصراعيه
مفتوح الأبواب
لا تعرف من يدنو أو ينأى
قتلاه بلا حدّ
إلى أن يقول:

لو أبصرت الهيكل تذروه الريح
يطويه الإعصار كما يُطوى التبغ

ويرميه بصحراء النار

وما يشعر باللدغ

لم تفتق قشرته الأرضية

لم يُخلق

ما زال التيه أباه

وهميُّ التكوين

يبحث عن الطين في الطين

هكذا حال الشاعر في لحظة البحث عن تلك الصور الفكرية، وأشكال المعنى المخبي بين ثنايا طرق الحقيقة.

الشاعر المرحوم خالد سعود الزيد، لم يكن شاعرا عابرا، وإنما محلقا في سماء الأدب بروحه وفكره وعطائه الذي زرع في سنوات إبداعه التي تجاوزت نصف قرن بافتراض الوقت، وأمدا طويلا بدوام بقاء الفكرة والكلمة التي تجلى بها شعره وأشرقت روحه عليها. لقد كان – رحمه الله – مثال الأديب الجامع لأدب الكلمة وشمول الفكرة فيما أثمره قلمه من كتب تجاوزت العشرين مؤلفا، ما بين ديوان شعري ودراسات جمع فيها شتات الأدب الكويتي بما حفظه لأجيال مقبلة تدين له فضله الكبير في توثيق الأدب والأدباء في الكويت.

*كاتب وناقد

<http://www.alraimedia.com/Templates/frNewsPaperArticleDetail.aspx?n paId=5095&send=ok>